

معطيات حول عادات المغاربة في الأكل والشرب

في عهد مولاي اسماعيل (1672-1727)

ذ.عبد الاله الدحاني*

تتميز المصادر الأجنبية في كثير من الأحيان بالتحامل السافر على المغاربة،وتتخللها أخطاء تاريخية متعددة، لذلك نبه كثير من الأساتذة إلى مزالقها، ودعوا إلى الحذر والإحتراس أثناء التعامل معها, غير أن هذه المصادر تبقى ذات أهمية بالغة لكونها تتضمن معلومات غنية عن جوانب أغفلتها مصادرنا إغفالا يكاد يكون تاما، ومن هذه الجوانب ما يتعلق بعادات المغاربة في الأكل والشرب, ونود في هذا المقام أن نتعرض لهذه العادات على عهد مولاي اسماعيل (1672-1727)

ذكر الأب بوسنو BUSNOT (1)أن المغاربة يتمتعون بقدرة فائقة على تحمل الجوع والعطش، وقد يأكلون التراب إذا لم يتوفر لديهم الخبز (2) وفي وثيقة أخرى ، نقرأ أن المغاربة كانوا يكتفون بتسخين العجين ليسهل تقطيعه، دون أن ينتظرون تحوله إلى خبز ناضج (3) أما إذا استحال عليهم التوفر على القمح ، كما هو الحال في توات ، فإنهم كانوا يدخلون في عاداتهم الغذائية اللحوم، وخاصة لحوم الجمال، والتمر، ويعوضون الماء في غالب الاحيان باللبن (4) وأشار توماس بيلو Tomas PELLOW (5) إلى أن سكان توات كانوا يتناولون اللحم نيئا , فهل يفهم من هذا دخوله في إطار العادات لدى بعض الجماعات السكنية؟ أم أن بيلو سجل صورة استثنائية ارتبطت بظروف التنقل والترحال السائدة في المنطقة ؟,

لقد كان المغاربة يتبعون طرقا مختلفة للمحافظة على جودة المواد الغذائية، يقدم لنا بيلو إحداها :" زودنا (القائد منصور) لمدة ثلاثة أيام بالمؤونة، فكان يرسل إلى الجنود كل يوم ضعف ما يحتاجون إليه , وهكذا قمنا بقطع ما فضل من اللحم إلى أجزاء ، وتمليحها ثم علقناها على السروج لتجف تحت وطأة البرد والشمس ونحن نقطع المسافات الطويلة, وبهذه الطريقة يمكن الحفاظ على اللحم لمدة سنة كاملة"(6).

وقد وصف بريتوايت BRAITHWAITE (7) عادات المغاربة في الأكل ، فذكر أنهم يتناولون الأرز والكسكس ولحم الغنم والبقر والدواجن، وأن شرابهم يتكون من الماء والعسل لأن الدين يحرم شرب

• أستاذ باحث بالمدرسة العليا للاساتذة الرباط.

الخمر, وعندما تكون الأكلات سائلة , يستعملون ملعقات من خشب، ولايشربون إلا بعد الإنتهاء من الأكل، ويستعملون أواني من النحاس والطين فقط، لأن استعمال الذهب والفضة تحرمه الشريعة(8) أما مويط MOUETTE (9)، فقد ذكر بعض أنواع الخضر والفواكه المنتجة بالمغرب، واستغرب للطريقة التي يتبعها المغاربة في تناولها، فالخس يؤكل مع قطعة من الخبز بعد أن ينظف بشكل جيد وتضاف إليه كمية من الملح, أما الفواكه ، وباستثناء الحوامض، فإنها تستهلك خلال الوجبات ، لأن الحفاظ عليها صالحة للأكل بعد ذلك أمر مستحيل، بفعل الحرارة المرتفعة، لذلك فإنها لا تبقى صالحة للأكل سوى يومين أو ثلاثة أيام بعد قطفها, ووصف مويط طريقة الأكل عند المغاربة ، ومما أورده في هذا الإطار :"إن الموائد التي يأكلون فوقها مصنوعة من الجلد، دائرية الشكل، توضع على الأرض فوق حصير يجلسون حولها بعد أن يزيلوا نعالهم، ويغسلون اليد اليمنى في إناء من النحاس الأصفر(,,,) ويرددون عبارة (باسم الله) ويتناولون الطعام بأيديهم, وكانت الصحون المستعملة ضيقة في الأسفل، ومتسعة في الأعلى, ويقومون بقطع اللحم بأيديهم حيث يجرونه كل من جهته، ولا يتكلمون أثناء الأكل(,,,) وعقب الإنتهاء من الأكل، يمسحون أيديهم على جوانب الصحون' ثم يلعقون أصابعهم مرددين عبارة (الحمد لله) ولا يشربون إلا الماء" (11).

وإذا كان مويط قد وصف طريقة الأكل عند المغاربة دون تعليق فإن الأب نولاسك NOLASQUE الذي قدم ضمن بعثة دينية فرنسية لافتداء الأسرى في بداية القرن الثامن عشر ، عبر عن تقززه منها' لذلك رفض ومرافقيه دعوة من المغاربة لمشاركتهم في الأكل(12).

وقد كانت ظروف السفر تفرض تغييرا في العادات الغذائية' خاصة لدى الرقاصين الذين كانوا يستخدمون لنقل الرسائل والأخبار' إذ كانوا يكتفون بتناول كمية من الدقيق والعنب أو التين الذي يضعونه في جلد المعز , وقد تقتصر وجباتهم على الدقيق وحده' حيث يبللونه بالماء في كف اليد ويبتلعونه ثم يواصلون طريقهم(13). وزودنا وندوسWINDUS (14) من جهته بمعلومات هامة عن الطرق التي كان يستعملها المغاربة للحفاظ على الحليب, فقد كانوا يقومون بتحويل كميات منه لاستعمالها عند الحاجة' بوضعه في قربة وتحريكه إلى أن يصبح زبدا' ويكون دائما حامضا(15) ولكن يبدو أن الأمر يتعلق بالسمن و ليس بالزبدة،ذلك أن وندوس علق على ذلك بالقول إن المغاربة كانوا يحتفظون به في حفر تحت الأرض بعد وضعه في جرار مدة تقارب خمس سنوات, وأضاف أن نفس الطريقة تتبع للحفاظ على كميات من شحم البقر والغنم والماعز، موضحا أن المغاربة كانوا يفضلون حليب النوق والماعز على حليب الأبقار لاعتبارهم الأول "مغذيا ومنشطا"(16). وحظيت أكلة الكسكس بقسط وافر من المعلومات التي أوردها الأوربيون حول الأكل في المغرب، بحيث لم يهمل الحديث عنها أي منهم تقريبا، واعتبرها بعضهم أحسن أكلة بالنسبة لسكان المغرب(17) وإذا كان وندوس قد وصف طريقة إعدادها

نقلا عن الوزان(18) لأن زيارته للمغرب كانت قصيرة ومنظمة، لم تتح له فرصة حضور تهيء إحدى وجبات الكسكس،فإن مويط ، على العكس من ذلك ، قضى مدة غير قصيرة بالمغرب،سمحت له بمشاهدة السكان وهم يعدون وجبة الكسكس ويتناولونها، فقد جاء في وصفه أن المغاربة "يأخذون قصعة كبيرة من الخشب أو الطين ، يضعونها أمامهم مع جفنة مملوءة بالدقيق وأخرى بالماء الصافي ، وغربال ومغرفة ، يرفعون حفنتين أو ثلاثا من ذلك الدقيق ويضعونها في القصعة ويصبون عليها من ذلك الماء ، يحرك الدقيق جيدا بالأصابع ،ثم يسقى من حين لآخر بالماء إلى أن يتحول إلى شبه حبات الجلبان الدقيقة"(19) وأشاد مويط بمهارة النساء اللائي كن يتفنن في فتل الدقيق بشكل جيد،وفي نفس الوقت تضعن كمية من اللحم في قدر لتطهى، وتضفن فوق القدر وعاء آخر (كسكاس) يتميز باتساعه في الأعلى وضيقه في الأسفل،وفيه يوضع الكسكس, وعادة ما يحاط ذلك القدر الأول بخرقة مبللة تحول دون خروج البخار, ويعقب ذلك صب الكسكس في طبق وتحريكه لكي يفتت، ثم يدهن بالسمن ويضاف إليه ما اشتمل عليه الوعاء الثاني من مرق ولحم, ونقرأ في مصدر آخر ،أن المغاربة كانوا يتناولون بعد الكسكس، قطعا من اللحم مع العسل واللوز، وأخرى من اللحم المحمر،مع قطع من البطاطس المقلية في الزيت, وفي الأخير يتناولون عصير المشمش(20)، غير أنه من الصعب تعميم مثل هذه المعلومات، إذ يظهر أنها ترتبط بفئة من السكان الذين تسمح إمكانياتهم بتوفير مثل هذه الكميات والأنواع من المواد الغذائية, ومما يرجح هذا الرأي، كون صاحب هذه المعلومات ، وهو من رجال الدين الفرنسيين زار المغرب بهدف افتداء الأسرى، فكانت مدة إقامته محدودة، وفرصة اطلاعه على عادات السكان من العامة ضعيفة، لأنه ظل محاطا بالحراس منذ نزوله بميناء سلا إلى أن ركب البحر عائدا إلى بلاده,

وإجمالا ، يمكن القول إن ما تمدنا به المصادر الأوربية عن عادات المغاربة في الأكل والشرب يكتسي أهمية بالغة ، لأن الإطلاع على هذه العادات خلال مختلف الفترات يجعلنا نقف على الظروف التي تم فيها التحول ، خاصة مع دخول المستعمر في بداية هذا القرن حيث أدخل عادات استهلاكية جديدة ,

هوامش:

1)-ينتمي إلى إحدى التنظيمات الدينية الفرنسية التي اهتمت بافتداء الأسرى,وقد زار المغرب ثلاث مرات في بداية القرن الثامن عشر ,

2)- BUSNOT Dominique- Histoire du régne de Mouley Ismail ,roi de Maroc,Fez,Tafilet,Sous,Rouen,1731,P.167

3)- Source inédites de l'histoire du Maroc,2 serie,France,TomeIV.P.654.

وسنرمز لهذه الوثائق لاحقا بحروفها الاولى S.I.H.M.

4)- Morsy Magali-la relation de Thomas Pellow ,une lecture du Maroc au 18- siécle.Paris,1983,PP.459-460.

5)-هو أسير انجليزي اعتنق الاسلام وانخرط في جيش العلوج الذي كونه مولاي اسماعيل،وترقى ليصبح قـــائدا لإحـــدى الفرق،وبهذه الصفة قام بعدة مهام منها مهمة إلى منطقة توات،وهي المشار إليها،وبعد 23 سنة من الخدمة،استغل الفوضـــى التي عمت المغرب بعد وفاة مولاي اسماعيل،ففر عائدا إلى انجلترا،وهناك قام بإملاء مذكراته على أحد الأشخاص،وقد قامت الباحثة الفرنسية مكالي مورسي بدراسة هذه المذكرات،وهي الدراسة التي أشرنا إليها في الهامش4.

6)- Morsy (M)-la relation ...op.cit.PP.108-109.

7)- جون بريتوايت Braithwaite،جاء مرافقا للسفير الانجليزي روسل Russell سنة 1727،وقد دون ملاحظاته عـــن المغرب وعن سفارة روسل في الكتاب الآتي ذكره في الهامش 8.

8)- BRAITHWAITE (Jhon)-histoire des révolutions de l'empire de Maroc,depuis la mort du dernier empreur Moulay Ismail...traduit de l'anglais par Bousquet,Amsterdam,1731,PP.459-460.

9)-جرمان مويطGermain MOUETTE أسير فرنسي قضى بالمغرب إحدى عشرة سنة حيـــث أســـر ســـنة 1670 وافتدي سنة 1681،وعندما عاد إلى فرنسا ألف كتابين:الاول حول ظروف أسره وما وقع له بالمغرب،والثاني حول عـــهد مولاي رشيد ومولاي اسماعيل وهو الآتي ذكره في الهامش 10.

10)- MOUETTE(Germain)-histoire des conquêtes de Moulay Archy et de Moulay Ismaël au Semien son frére,Paris 1683.PP.376-377.

11)- Ibid,PP370-377

12)- S.I.H.M,2 serie,France,Tome VI,P644.

13)- وهي الأكلة المعروفة باسم (الزميتة)،راجع: MORSY(M)-la relation...op.cit.P88,note 87

14)- وندوس Windus انجليزي جاء سنة 1721 مرافقا للسفير شارل ستيوارت،وعندما عاد إلى بلاده ألف كتابا حول هذه السفارة وحول ملاحظاته العامة عن المغرب،وهو الآتي ذكره في الهامش 15.

15)- ونـــدوس (جـــون)-رحلـــة إلى مكنـــاس،ترجمـــة زهـــراء اخـــوان،منشـــورات عمـــادة جامعـــة مـــولاي اسماعيل3،مكناس،1993،ص 49.

16)- نفس المصدر ونفس الصفحة .

17)-انظر مثلا: S.I.H.M,2 serie,France,TVI,P446

18)- وندوس - رحلة - ص 63.

19)- مو يط(جرمان) - رحلة الأسير جرمان مويط،ترجمة محمد حجي ومحمد الاخضر،الريصاني،1990،ص 29.

20)- S.I.H.M,2 série,France,TVI.PP643-645

وقد صدرت عن الأوربيين تصرفات تدل على عدم تعودهم على تناول الكسكس،مثل أعضاء السفارة الانجليزية التي زارت المغرب سنة 1721،انظر حول هذا الجانب:وندوس،رحلة،ص 63-64.